

طلاق الوالدين والاستجابات النفسية للطفل

الأستاذة: لوشاحي فريدة

قسم علم النفس جامعة بسكرة

مقدمة :

من المسلم به أن الطفل بحاجة ماسة إلى العيش في كنف الأسرة لكي ينمو نمو نفسي سليم ولما نقول أسرة نقصد الوالدين، فخبرات التفاعل الأسري تساهم في تزويده بالحاجات النفسية والاجتماعية وعملية النمو اللازمة. والنمو النفسي لأي فرد ينتج من منظومة الأسرة التي ينتمي إليها ولذلك فهي المصدر الأساسي للصحة والمرض.

والعلاقة الثلاثية أب - أم - طفل تمثل المعادلة الأساسية للاستقرار والتوازن في نمو الطفل فالمشاركة الوالدية المبكرة في العناية تدعم وتقوي معالم وجوده (P.Canoui، 1994، p 308) وتحدد تكوين شخصيته.

فالوالدان معا يملكان تجاهه حق وواجب الحماية الرعاية، المراقبة، والتربية، ويمارسان باشتراك السلطة ويتحملان معا تسيير شؤون معيشتها.

إن الحب الذي يمنحانه لطفلها يعتبر في حياة الطفل غذاء ضروريا لنموه النفسي.

والطريقة أو الأسلوب الذي يعبران به عن حبها لبعضها البعض وحبها لطفلها، له تأثير بالغ في تحديد الجو الانفعالي الذي يسود الأسرة (د.محمود حسن، 1981، ص ج)، وخاصة منذ المراحل الأولى من نموه، والتي يتشكل فيها كيانه والتوافق النفسي السليم. فعندما يضمن الأبوان الحب نحو بعضهما البعض يتجه الطفل نحو حب أبويه، وعندما يتبادل الأبوان الكراهية يضطر الطفل إلى الانحياز نحو أحد الجانبين ويقف ضد الآخر. وبالتالي فالصراع بين أعضاء الأسرة يؤدي إلى ظهور توترات الضيق والكراهية، وما لم تخفف هذه التوترات فإنها تؤدي إلى تصدع الأسرة وحدوث الطلاق، الذي يعتبر خبرة مؤلمة وتجربة صعبة على المطلقين، وأكبر من ذلك على الأطفال.

هؤلاء لم يتم بعد بناءهم النفسي، وتعرضهم لخبرات مؤلمة كهذه تؤثر على مسار حياتهم كلها وعلى تكوين شخصيتهم مما يجعلهم عرضة للإصابة باضطرابات نفسية وسلوكية وعقد مختلفة.

1) دور الوالدين في النمو النفسي السليم للطفل :

لقد أكد الأطباء والنفسانيون أنه منذ بداية تواجد الطفل فإن الوالدين يمثلان مصدرين للعطاء يختلفان جزئياً، لكن هذا لا يعني بالطبع أنهما متشابهان في الفعالية.
(C.Zaouche-Gaudron، 2001، p79).

وخلال الساعات الأولى والأيام الأولى من حياة الطفل فإنه عندما يحظى بوالديه الاثنین معا فهو محاط " بغلافيين عاطفيين "، وينموذجين للإثارة غير متناهية، فالرسائل الصوتية، اللمسية والحسية holding الموجهة للرضيع من قبل الأب والأم، تحمل طابعا نفسي- حسي مختلف، من جهة طابع أنثوي، ومن جهة أخرى طابع ذكري.
وعلى الرغم من أهمية العلاقة الثنائية أم- طفل، إلا أن الأبحاث الحديثة أثبتت أهمية العلاقة الثلاثية أم-أب-طفل، وبيّنت أهمية دور الأب في النمو النفسي للطفل.

(1-1) دور الأم :

إن العلاقة أم - طفل تبدأ بصورة جد مبكرة ولها أهمية كبيرة في التكوين النفسي للطفل، فمنذ فترة الحمل وخلال السنتين الأولتين، تتدخل هذه العلاقة في تكوين شخصيته وإشباع حاجاته النفسية، وشعوره بالأمن والطمأنينة (د.محمد قاسم عبد الله، 2001، ص 426).

ويبدو دور الأم من خلال مفهوم "التعلق **L'attachement** " الذي تكلم عنه J.Bowlby، والذي هو أساسي وضروري لنمو الشخصية، والتعلق هو سلوك ينتج من حاجة فطرية أولية ومن الإكتسابات ولديه وظيفة مزدوجة:

-وظيفة الحماية: بمعنى الأمان الذي يوفره الراشد القادر على الدفاع عن الطفل ضد أي عدوان.
- وظيفة الجماعة: إذ أن التعلق يتحول خلال دورات حياة من الأم إلى الأقارب ثم الغرباء وأخيرا إلى جماعات أكثر فأكثر اتساعا.

وهكذا إحساسه بالأمان يزداد ولكن أي تهديد بفقدان الأم يخلق الشعور بالقلق، وفقدان حقيقي لها يخلق الاكتئاب وهذا ما يسميه bowlby ب: " قلق الانفصال " و " القلق الاكتئابي ".
(B.golse، 1994، p 145).

لقد تبين أن الحرمان من الأم سواء جزئياً أو كلياً يترك آثار متنوعة على الطفل، كتأخر النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي، واضطراب تكوين الأنا والأنا الأعلى.

وحسب العالم D.w.winmicott فإنه في بداية حياة الطفل تعتبر العناية الأمومية الجدية والكافية هي ضرورة محتمة، إذ من المهم أنها توظف في الطفل الرغبة في الحياة، وتثير لديه لذة الإحساسات والشبكية الذاتية، فأنا الطفل هوفي البداية قوي وضعيف في آن واحد. ويفضل الإعتناءات الأمومية الأولية " PMP " فإنه يتم تنظيم الأنا، والذي يركز على إحساس مستمر وكافي بالتواجد.

ولقد أوضح فرويد من قبل الدور الهام للإعتناءات الأمومية في التنظيم الأولي لأننا حسب مبدأ اللذة (B.Golose، 1994، p 80) وحتى ينمو الطفل من الضروري أن يكون هو موضوع رغبة لكون موجهة نحوه كشخص (وليس كشيء).

(1-2)- دور الأب :

غالب ما يطرح التساؤل حول متى يبدأ دور الأب مع الطفل ومتى يؤثر فيه ويتأثر به، وقد كانت الإجابة على ذلك من قبل المحللين النفسانيين والتي تقول أنه يكون ذلك عندما يعبر الطفل السنة الأولى من حياته، أو يتخطى ما يسمى بـ " المرحلة العمرية الخاصة بالأم " (C.Zaouche-Gaudron، 2001، p78) مبررين ذلك بأن حاجات الطفل متعاقبة.

ففي البداية هو بحاجة إلى الحنان المقدم أوليا من قبل الأم، ثم السلطة المؤمنة من قبل الأب لكن الدراسات الحديثة أكدت أن دور الأب يسبق ذلك بكثير، منذ المرحلة الجنينية وخلال الأشهر الأولى بعد الميلاد.

فأثناء الحمل يدرك الجنين والده من خلال الأحاسيس التي تشعر بها الأم، أو من خلال صوته أثناء الحديث الموجه إليه.

والمؤكد هو أنه خلال السنة الأولى من عمر الطفل فإن الاشتراك أم- طفل لديه وظيفة جد خاصة، إذ أنه في البداية يكون تابع لعلاقة عاطفية، مغذية، ومؤمنة، ومطمئنة مع أمه. وفقدانها يمثل خطر كبير عليه، وكلما شعرت الأم بأنها في محيط آمن في علاقتها مع الأب كلما تمكنت من أداء وظيفتها تلك بشكل أفضل.

إبتداء من السنة الثانية ولاحقا الثالثة والرابعة، يصبح الطفل يسير وفقا لإيقاع طبيعي ومنتظم وينمو مبتعدا عن أمه، ومنفصلا عنها شيئا فشيئا، ومن أجل ذلك هو بحاجة إلى الأب. إن الطفل بحاجة ماسة لمساعدة الأب لكي ينجح في تفرده، في انفصاله واستقلاليتيه. وعندما يغيب الأب لسبب ما، فإن الطفل يبقى متعلقا بأمه، مع كل ما ينجز عن ذلك من انعكاسات على نمو شخصيته.

لذلك نركّز على أهمية العلاقة الثلاثية، وخاصة ما لها من دور في تكوين الهوية *Identité* بالنسبة للولد أو البنت، فهما بحاجة إلى تجارب مع الأم ومع الأب من أجل تكوين سيرورات التقمص. فمع الأم تدرك البنت كيف تصبح امرأة، ومع الأب يدرك الولد كيف يصبح رجلا. وبناء على ذلك فغياب أحد الوالدين يجعل الطفل غير مؤمن على صعيد نمو الأدوار الجنسية، مما قد يجعله لاحقا في الرشد يلقي صعوبات علاقية مع أشخاص من الجنس الآخر أوتحتى من نفس الجنس. إن الأولاد والبنات بحاجة إلى مساعدة ونموذجي الأب والأم لكي تتموهويتهم الشخصية، وينموالشعور السوي بالذات، والسلوك العاطفي والعلائقي المستقر. (<http://membres.lycos.fr/alienationparentale>)

إن فقدان أحد الوالدين يحطم كيان الطفل وبنيتيه النفسية، فجزء من شخصيته يحصل فيه "بتر نفسي *Amputation Psychique*" يؤدي إلى عواقب وخيمة على نموه بصفة عامة.

(2)-طلاق الوالدين :

إن العلاقة الزوجية هي قبل كل شئ علاقة تفاعلية تقوم على جملة من الأدوار والواجبات والحقوق والمشاركة في الحياة، لكن قد تصاب هذه العلاقة بتصدعات ناجمة عن أزمتات وصراعات ومشاكل لا متناهية، يصعب على كلا الطرفين أو أحدهما حلها، وبالتالي يصعب استمرار العيش المشترك، لأنه لو أستمر سوف يخلق مشاكل أكبر، نفسية، اجتماعية، أسرية وتربوية لأبناء. وهنا يحدث الطلاق الذي ينهي الرابطة الزوجية ويفصل كل طرف عن الآخر حتى يعيش كل بمفرده وبمعزل عن الآخر.

وغالبا ما يتردد الوالدان في الانفصال لأنه قرار لا يخصهما وحدهما ولكن يخص أيضا أبناءهما. حيث يتساءلون عن مصيرهم ومستقبلهم ورد فعلهم ومدى تقبلهم للوضع الجديد، الذي سيجبرون فيه على العيش مع أحدهما دون الآخر الذي يقتصر وجوده على زيارات فقط.

(2-1) - الإعلان عن الطلاق :

مهما كانت أسباب الطلاق فإنه بدون شك صعب ومؤلم بالنسبة للطفل، فقد تعدد المظاهر ولكن النتيجة واحدة، وحتى لو يكون الحل لتوقف وضعية صراعية سابقة.

إذ غالبا ما يسبق الطلاق سلسلة من النزاعات بين الوالدين، يكون الطفل شاهدا عليها وحتى أنه يقحم فيها، ويصبح طرفا فيها ويتأزم الوضع، وفي هذه الحالة يعتبر الطلاق بالنسبة لهؤلاء الأطفال بمثابة النهاية والحل لحياة عائلية مضطربة ومزعجة. وقد يشعروا في البداية بالارتياح لكن على صعيد أعمق فإنه على الطفل أن يقوم " بسيرة الحداد" على عائلته الخاصة وعلى العائلة النموذجية.

وبعض الأولياء قد يقولون بفخر عن رد فعل ابنهم تجاه الطلاق " أنه بخير وتقبل الأمر جيدا وبدون مشاكل، حتى أنه يبدو سعيدا ". ولكن في الواقع ما يظهره الطفل يخفي جرح كبير جدا، وهو ناجم عن استخدامه ميكانيزم الإنكار " deni " لمعاناته الخاصة، والذي قد يكون من أجل مواساة الأب أو الأم المنهارة، ومن أجل حمايتهم في حين أنه هو بحاجة إلى المواساة.

(www.psychologies.com/cfml/article/cfmlid)

وهناك حالات أخرى لا يشهد فيها الطفل أي صراعات بين والديه ويبدو أن كل شيء مستقر وعلى ما يرام، إلى أن يتلقى فجأة قرار الانفصال، الذي يعتبر هنا صدمة قاسية عليه يعيشها كمأساة شخصية تؤدي إلى صعوبات نفسية واجتماعية كثيرة، لأنه لا يفهم لماذا انفصل والده وما هو السبب، خاصة إذا لم يكن هناك حوار بينه وبين والديه.

لذلك مهما كانت الظروف وسواء كان هناك استعداد مسبق لتلقي خبر الطلاق أم لا فإنه من المهم على الوالدين إعلام الطفل عن قرار انفصالهما وعن أسبابه. فقد نشهد كثيرا في حالات الطلاق خاصة في مجتمعنا أن الوالدين ينهران ويقعان في ارتباك وحيرة، وهذا يزيد من قلق الطفل وخوفه، ويسئ فهم الوضعية. وبدون وجود حوار معه فإنه لا يستطيع التعبير عما يدور في داخله وبالتالي يقع في اضطرابات نفسية عديدة (سوف نذكرها لاحقا).

لذا يجب تشجيعه على التعبير والتصريح بمشاعره وأفكاره، وتصحيح الفهم الخاطيء، خاصة أنه قد يظن نفسه السبب في تلك الصراعات. على الوالدين إخباره بما يجري وما سيجري لاحقاً حتى لا يكون شعوره بأن مصيره الآن مجهول. إنه بحاجة إلى معرفة أن أمه وأبوه سيبقيان دائماً والديه حتى ولو انتهت الرابطة الزوجية بينهما بالطلاق، وحتى لو لم يصبحا يعيشان معاً.

2-2- الآثار السلبية للطلاق على الطفل :

لقد أوضحت عدة دراسات أن طلاق الوالدين يؤدي على المدى القصير أو البعيد إلى تأثير سلبي على نمو الطفل النفسي الذي هو في بداية بناءه. إن فقدان العلاقة العائلية هي ليست فقط النتيجة الخطيرة للطلاق ولكنها أيضاً السبب في ظهور اضطرابات في النمو والشخصية عند الطفل. والخطر الأكبر الذي يحدق بالطفل هو عندما يفقد تماماً الاتصال بالوالد الآخر، حيث أن كثير من الآباء وحتى الأمهات يتخلون تماماً عن ولدهم، ويبقى فقط تحت كنف أحدهما دون رؤيته مجدداً أو حتى السؤال عنه، وبذلك يعتبر فقدان حقيقي للوالد الحاضر الغائب، فهنا يشعر الطفل أنه يكرهه، ورافض له، وبالتالي قد يطور اضطرابات نفسية وسلوكية خطيرة.

2-2-1- ماذا يفقد الطفل بطلاق والديه :

إن فقدان العيش في كنف الوالدين معاً أو فقدان أحد الوالدين نتيجة الطلاق قد يؤدي إلى فقدان ما يلي

- يفقد الطفل الشعور بالأمان العاطفي *sécurité affective* والذي يرافق عادة بتناذر الهجر *syndrome d'abandon* خاصة من قبل الوالد الذي يترك المنزل.
- يفقد حنان والديه المجتمعين حوله، والسعيدين معاً والمسرورين بتقاسم لحظات سعيدة معه.
- يفقد إمكانية التقمص، والتعبير عن الرغبات التي يشعر بها تجاههما، والتي تسمح له ببناء نموذج ذكري أو أنثوي، وتكوين نموذج عن العلاقة الزوجية.
- يفقد معالمه الفضائية - الزمنية *Ses repères spatio- temporels*، مع انعكاساتها الجسدية والعاطفية.

2-2-2- المشاعر التي تنتاب الطفل نتيجة طلاق والديه:

تختلج الطفل مشاعر متناقضة وارتباك، لا يعبر عنها ولكن يظهر في سلوكه، في حديثه، في علاقاته مع الآخرين وأيضاً أثناء اللعب، وأهم تلك المشاعر هي:

1- الشعور بالقلق: خاصة عندما يسبق الانفصال النزاعات والخلافات والعنف اللفظي أو الجسدي بين الوالدين الذي يشكل تهديد لكيانه.

2- الإحساس بالعار: حيث يعيش الطفل انفصال والديه كعار أو عيب " tare " يريد إخفاءه وتجنب الحديث عنه، لأنه يشعر باختلافه عن الأطفال الآخرين خاصة لما يكون في المدرسة إذ يخشى السخرية والتهمك.

3- الشعور بالذنب: هنا يعتقد أنه هو السبب في الطلاق خاصة عندما يقحم في الصراع.

4- الغضب: تجاه والديه نتيجة لمشاكلهم التي تترك حياته وتمنعه من العيش بسلام والشعور بالاستقرار. (<http://membres.Lycos.fr/conseilconjugal/enfant.htm>)

5- الحزن: نتيجة فقدان وخسارة العلاقة العائلية التي كانت تجمعها بالديه.

6- الحساسية المفرطة: يصبح الطفل يتأثر لأبسط الأمور ولا يتحكم في انفصاليه لأنه، ذلك لأنه يحسن أن طلاق والديه هو رفض له.

2-2-3- الاضطرابات التي تظهر على الطفل :

إن صعوبة تعبير الطفل عما يشعر به داخله وعما يفكر فيه، وما يزعجه وما يؤلمه يؤدي به إلى الاستجابة بطرق أخرى. فتفكك عائلته بالطلاق له عواقب وخيمة على نموه وصحته النفسية، ويلعب دوراً حاسماً في ظهور الاضطرابات النفسية والسلوكية، وقد كشفت الدراسات أن أهم الاستجابات النفسية للطفل تجاه الطلاق هي :

- اضطرابات في تكوين الشخصية: وتكوين مفهوم سلبي عن الذات، ضعف الثقة بالنفس وبالآخرين، شعور بعدم الكفاءة، ونشير إلى أن أطفال المطلقين ووفقاً للظروف السابقة أو المصاحبة للطلاق، إما أن يكونوا غير ناضجين Immatures ونكوصيين، أو العكس ناضجين لدرجة كبيرة Hypermatures. (P.Canoui، 1994، p312)

- اضطرابات نفسية: حيث تظهر استجابات اكتئابية، ينطوي الطفل على نفسه برفض الحديث والتواصل مع الآخرين، يصبح بدون إرادة، خامل وكسول، عدم الرغبة لديه في القيام بأي شيء حتى اللعب.

- استجابات القلق : والشعور بالأمن، والخوف كأن يصبح يخاف من أشياء بسيطة مثلا النوم بمفرده، أو يخاف من الظلام... الخ.
- اضطرابات نفسيو - جسدية : تتمثل في الامتناع عن الأكل، وفقدان الشهية، أو العكس الإفراط في الأكل، إضرابات في النوم تضم الأرق، الكوابيس.
- اضطرابات سلوكية : نشاط حركي زائد، سلوكيات عدوانية، الهروب من المنزل أو المدرسة، العناد، الأناية، وسلوكيات نكوصية.
- إضرابات معرفية : تأخر دراسي، ضعف الانتباه.

3) - نصائح للوالدين المطلقين : يجب الإشارة إلى أن ما قد يزيد من اضطرابات الطفل هو سلوكيات الوالدين المضطربة والمرضية. حيث غالبا ما يعامل كل طرف الآخر على انه عدو، ويستعمل الطفل كسلاح للقضاء عليه. وكل طرف يحاول تحقير الآخر وتشويه صورته لدى الابن، ويحاول تخبيره من يحب ومع من يريد أن يعيش. وفي حالة عيشه مع أحدهما يسأله معلومات عنه.

يجب أن يتعلّم إخفاء مشاعر الغضب والقلق من الطرف الآخر أو السخرية والتهمك. إن كل هذه السلوكيات من قبل الوالدين قد تكون شعورية أو لاشعورية، لكن من المهم أن يدرك كل والد أن الطفل ليس بلعبة عاطفية بينهما، وعليهما أن ينجحا في الفصل بين حياتهما كزوج، والتي قد انتهت، وحياتهما كوالدين، والتي لم ولن تنتهي أبدا. وعوضا عن اهتمامهم بأحقادهم الشخصية عليهم الاهتمام بمستقبل ابنهم والالتزام بأدوارهما كأب وأم على الرغم من انفصالهما. وهذا إذا كانا فعلا يريدان النمو النفسي السليم له.

قائمة المراجع

- د. محمد قاسم عبد الله، مدخل إلى الصحة النفسية، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، 2001.
- د. محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، (ب ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- P.Canoui، P.Messerchmitt، O.Ramos،Psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent،ed Maloine،Paris،1994.
- Maurice Berger،L'enfant et la souffrance de la séparation،2eme ed،Dunod،Paris،2003.
- Bernard Golse،Le développement affectif et intellectuel de l'enfant،3eme ed، Masson،Paris، 1994.
- Chantal Zauouche-Gaudron، La problématique paternelle، ed Erès، Paris،2001.

Internet :

- <http://membres.lycos.fr/alienationparentale>
- www.psychologies.com/cfml/article/cfmlid
- <http://membres.lycos.fr/conseilconjugal/enfant.htm>